السرحيون او الشرويون

D'où vient le mot Sarrasins.

الفرنسيون يسمون العرب الذين دخلوا ديار الاندلس وديارهم بالسرازين والانكليز يكتبونها Saracen والرومان Saraceni واليونانيون Sarakenoi وقد اختلف لغويوهم في اصل هذه الكلمة وذهب اغلبهم الى انها محرفة عن « شرقيين » هذا مانص عليه لغويو الفرنسيين والانكليز والايطاليين والاسبانيين وغيرهم. وهذا لايمكن ان يكون ، اذ لايبعد ان يكون اول من اتخذ هذا الاسم الاجانب او المسلمون. فان كان الاجانب فلا يمكن لهم ذلك اذ لا يسمونهم باسم عربي وهم لا يعرفون العربية والعرب لا يعرفونه ولا ترى في كتبهم ولفظ الشرقي يشمل كل من كان في ديار الشرق الادنى ولا يدل على المسلم وحده دون غيره ، او انه لم يدل على هذا المعنى في اول وضعه. واما المسلمون فانهم فضلوا اسم المسلم على كل اسم سواه .

اذن من المحال ان يكون السرازين او السراسين تصحيف « شرقي » ثم جاء صاحب الهلال واثبت هذا الراي واستحسنه فكتبنا عليه ردا قبل ٢٠ سنة (اي في سنة ١٩٠٤) في مجلة المشرق اوضحنا رأينا في اصل هذه الكلمة ولم نوافق على رأي البحاثة جرجي زيدان وهذا نصه بحرفه بعنوان (العرب او السرحيون) :

« طالعت في الهلال (٦ : ٢٩٧) نبذة في اصل لفظة Sarrasins الافرنجية فرأيته يقول :

« ان الافرنج قد صحفوا لفظة الشرقيين الى لفظة Sarrasins واراد بها العرب . وهذا رأي السواد الاعظم من المستشرقين : ولكنه تعليل ضعيف لان اليونان والرومان اذ سموا العرب باسم ، لا يسمونهم بلفظ من لغة العرب ، بل من لغتهم هم (كذا) . ويلوح لنا انه اقرب الى الصواب لان بلاد العرب ما برحت معروفة منذ القديم ببلاد المشرق وأهلها بنو المشرق . وحيثما ورد ذكرها في التوراة سميت (قدم) اي المشرق واهلها (بني قدم) اي بنو المشرق . والغالب ان يراد بهذا الاسم الاقسام الشمالية من جزيرة العرب. واما

اقسامها الجنوبية فيسمونها ارض الجنوب (تيمن) وفي القاموس: التيمن الجنوب ومنها اليمن وتدل هذه اللفظة في اصل اللغات الشرقية على اليمين او اليد اليمنى. والسبب في اطلاقها على بلاد العرب ان من يستقبل المشرق بوجهه كان الجنوب الى يمينه . وكان العبرانيون يقيمون في شمالي جزيرة العرب وهم هناك اذا استقبلوا مشرق الشمس كانت بلاد العرب الى يمينهم . فسموها التيمن اي اليمين ثم تشابه المعنيان اليمين والجنوب » انتهى كلام الهلال .

ثم نقرنا عن اصل هذه الكلمة في معاجم لغويي الفرنسيين وفي كتاب حضرة الاب لامنس من كالفاظ الفرنسية المأخوذة من العرب . فالفيناهم جميعهم يقولون مثل هذا القول . اي ان كلمة Sarrasins من تصحيف الكلمة العربية « شرقيين » ومع هذا كله فانا نستبعد هذا الاشتقاق لان الاعاجم اذا ارادوا ان يسموا قوما اجنبي الجنس اطلقوا عليه اسما ماخوذا عنهم او عن بلادهم او اسما يضعونه لهم اخذا عن لغتهم . والحال ان العرب لم يتسموا بالشرقيين ، كما انه يستحيل على الافرنج ان يسموا الناطقين بالضاد باسم غير موجود في لغتهم. ولهذا إننا نوافق صاحب الهلال في كلامه الاول ونخالفه في كلامه الثاني

ولفظة « سرزين او سراسين قديمة الاستعمال عند الافرنج . فقد قال ابن بطوطة في رحلته (وكانت في سنة ١٣٣٣ م) الى بلاد الروم عند دخوله القسطنطينية ما نصه : « سمعتهم يقولون سراكنو ، سراكنو ، ومعناه المسلمون » (رحلة ابن بطوطة طبع باريس ٢ : ٤٢٠) ـ وقد اشار ابن الاثير الى اصل هذه اللفظة في الكامل (١ : ١١٧ من طبعة القاهرة) اذ قال : « وكانت الروم تسمي العرب سارقيوس » يعني عبيد سارة بسبب هاجر ام اسماعيل » اه . وهذا الراي عندي اصح من قولمن تقدمت الاشارة الى ذكرهم . وليس من البعيد ان تكون اللفظة منسوبة الى سارة وهي مما يعرفونه وموجود في لغتهم. فقالوا اذن « ساريون » او على طريق النسبة في لسانهم Sarakénoi (سراكنو أو سراكينوي) اشارة الى انهم عبيد لسارة كما تنسب الى من يكون في خدمة الملك او السلطان او القيصر فتقول فيه ملكي او سلطاني وقيصري لان بعض الاسماء قد يضاف اليها او ينسب اليها لادنى علاقة بينها وبين الاصل .

إلا اني ارى رأيا آخر وهو : ان لفظة سرزين منسوبة الى « سرحة » قال

ياقوت : «سرحة بلفظ واحد السرح ... مخلاف باليمن وهو احد مراسي البحر هناك وهو موضع بعينه» اه . وهذا يوافق ما نقله بعض الافرنج من قدماء وطنيهم كما جاء في المعجم اليوناني الفرنسي لالكسندر قال : Saraca, Saraka, ès Sarakènoi, Saraceni اهلها» اه .

وقال كيشرا L. Quicherat وأ. دافلوي A. Daveluy في معجمهما اللاتيني الفرنسي نقلا عن اميانس مرسلينس Amianus Marcellinus ويونيور Junior ان الـ Sarraceni أو Saraceni جبل من عرب اليمن . وقال بواست في معجمه العام : «Saracène قطر قديم في جنوبي اليمن» . فهذا القطر او هذا المخلاف هو «سرحة» وكان فيه قبيلة من العرب تعرف باسم «بني جرم» وقد فتحوا الفتوحات الجليلة في صدر النصرانية وخافهم الرومان والفرس وسوف نرصد لهم مقالة خصوصية مسندة الروايات الى مؤرخي الافرنج والعرب مما يقضي منه العجب ان شاء الله .

هذا ولما كانت الحاء غير موجودة عند الافرنج من القدمين ومحدثين ابدلوهما من الكاف في اليونانية اي K ومن ك في اللاتينية ومن السين او الزاي في الفرنسية فتنقلت بهذه الصور المختلفة فتذكرت ومما يعين المتثبت على قبول هذا الرأي الجديد :

١ــ تتبع هذه اللفظة في فروع اللغة اللاتينية او في لغياتها فهي في الاندلسية والبرتوغالية Sarraceno, Sarracin وفي القطلونية Sarrahi (وهذه تقرب كثيرا من الاصل العربي) و Sarrayn وفي البلنسية Saracé الى غيرها .

٢ــ استبعاد تسمية شعب أو امة او قبيلة باسم غير اسمها الذي تسمي بها نفسها او بغير مسمى بلادها . او باسم غير مشتق من لغة القوم الذين يطلقون على الاجانب هذه التسمية الجديدة .

٣ــ لو قلنا Sarrasins مأخوذة من لفظ «شرقيين» فكيف نفسر قول الاقدمين من يونانيين ورومان ان Saraca او Saraka قطر من بلاد العرب وان Saraceni او Sarakenoi قوم من عرب اليمن او من اهل بلاد اليمن ؟

٤ــ يسر قبول راي ابن الاثير ان «سراكيوس» (كذا في الاصل المطبوع في القاهرة والاصح سراكنو كما ذكرها ابن بطريق او «سراكنوي» تبعا للاصل

اليوناني) ان يكون من سارة امة (جارية) ابراهيم الخليل ثم امراته لان اغلب عرب اليمن من قحطان (او يقطان كما في التوراة) لا من عدنان ؛ واولئك اقدم عهدا في اليمن من هؤلاء . ثم ان في هذا النسب Sarkénoi مما يخالف مطرد النسب عندهم . فلو كانت اللفظة منسوبة نسبة صحيحة الى Sara (سارة) لقيل مثلا Saroi او Sarnoi لا Sarakénoi لان هذه مضافة الى Saraka (اي سرحة) التي ذكرناها .

وبهذا القدر كفاية لمن يريد ان يسمع الحق ويراه ، ويقر به . ولا يحتج بقوله ان الافرنج لم تقل به لان المستشرقين او لغويي الغرب لم يوهبوا فصل الخطاب ولم يؤتوه في كل باب ؛ والله اعلم بالصواب . انتهى ما كنا كتبناه في مجلة المشرق .

اما اليوم فنزيد على ما تقدم رأيا آخر نظنه احسن من منحنا الاول . وان كان ذاك حسنا في حد نفسه ، ودونك اياه :

ان Sarrasins كلمة منسوبة الى السراة وفي الوقف تلفظ Sarah وهو يوافق كل الموافقة لما نطق به القدمون من ابناء الغرب ، فقد قال الاصمعي : « السراة : الجبل الذي فيه طرف الطائف الى بلاد ارمينية . وفي كتاب الحازمي : السراة : الجبال والارض الحاجزة بين تهامة واليمن . ولها سمة وهي باليمن اخص . وقال الحسن بن علي بن احمد بن يعقوب اليمني الهمداني : اما جبل السراة الذي يصل ما بين اقصى اليمن والشام ، فانه ليس بجبل واحد وانما هي جبال متصلة على شق واحد من اقصى اليمن الى الشام في ارض اربعة ايام في جميع طول السراة ... اه . وقال ابوعمرو بن العلاء : افصح الناس اهل السروات ، وهي ثلاث ، وهي الجبال المطلة على تهامة مما يلي اليمن ، اولها هذيل وهي تلي السهل من تهامة ، ثم بجيلة وهي السراة الوسطى . وقد شركتهم ثقيف في ناحية منها ، ثم سراة الازد ، ازد شنوءة ، وهم بنو كعب بن الحرث بن كعب بن عبدالله بن مالك بن نصر بن الازد اه .

فلا عجب بعد هذا الشرح ان يسمى العرب سروريين اذ يشمل هذا الاسم اليمانين اي القحطانيين والحجازيين اي العدنانيين ، على ان الظاهر من نقل الرومان

واليونانيين للفظة انها كانت في اول الامر « سراهين » لا « سرويين » اي انهم اعتبروا السراة اسم جمع يشمل تلك الجبال المتقاودة من اليمن الى الشام . ولما نسبوا اليها اعتبروا الهاء الاخيرة هاء صرفة كما في سنة . فانهم قالوا في النسبة اليها سنوي على الاصل وسناهي على اللفظ . وهكذا قالوا في السراة : سروي على الاصل وسراهي على اللفظ .

وعندنا ان هذا الرأي ارجح وان كان ذاك حسنا ايضا في حد نفسه فليختر القارئ ما يشاء . اما القول بان الاصل هو شرقيون او كما قال آخرون : سراقون جمع سراق بمعنى السارق اي كثير السرقة اي الغزاة فليس فيه شيء من الحقيقة وكذلك القول ان الاصل هو صحراويون فكل ذلك غير صحيح ومبني على الوهم .

ومن الغريب ان بعض الكتبة المسيحيين في القرنين الاخيرين جهلوا اصل هذه اللفظة كل الجهل . فاخذوا يحرفون الكلمة عن العربية بلا فكر ولا هدى . وذكروها بصورة سراكنة وهي واردة في تراجم القديسين مثلا في سيرة القديس صفرونيوس بطريرك اورشليم . وجرى في اثرهم المؤرخ الموثوق به يوسف داود برلوني الذي اشتهر بعد ذلك باسم المطران اقليميس داود فانه ذكر مسلمي العرب باسم السراكنة (راجع كتاب مختصر تاريخ الكنيسة للمعلم لوقون ص٢٢٠) وبعضهم ذكرهم باسم الشراكسة مع ان هؤلاء هم الشركس او اجركس وقد تبعه على هذا الغلط البطرك بولس مسعد فقد جاء في كتابه الدر المنظوم « تسمت دول العرب عموما بدول السراكسة نسبة الى محل بين مكة ويثرب (المدينة) او في الطريق التي تؤدي من مكة الى القدس يدعى سوراقية او سرقة وسرقة وسريقا والشرق وهو غير اسم الشراكسة المطلق على دولة الاتراك الجركسية » اه .

ولكن لم يقل لنا المؤلف كيف ان سوراقية واخواتها تنقلب سراكنة . ولا اين وجد تلك الاسماء التي في بعضها من الغرابة ما يطرد خبثاء الجن ولا جرم ان الباحث يحتاج الى صرف جانب عظيم من مخيلته ليصل اليها والعلم لا يسلم به هذا فضلا عن ان هذه المواضع لا وجود لها في كتب البلدان ولا في الرحلات فلا ندري من اين اتى بها . والذي عندنا انه نقلها عن الاجانب والله اعلم